البلوي نموذج لمجاهدي الألفية الجديدة ياسر الزعاتره

الاثنين 11 يناير 2010 12:01 م

11/01/2010

***ياسر الزعاتره:**

منذ انكشاف هوية منفذ عملية قاعدة خوست (همام البلوي)، حرصت على قراءة الكثير من نصوصه المنشورة باسم "أبو دجانة الخراساني"، وقد لفت انتباهي ما يملكه الرجل من قدرات كتابية لم تعكسها الكلمة التي ألقاها في وصيته "المتلفزة"، وبجانبه زعيم طالبان الجديد.

في النصوص، ثمة بلاغة واضحة، وقد نُقل عن بعض أقربائه أن له ديوان شعر غير مطبوع، وإلى البلاغة يضيف البلوي قدرا من التدفق في الأفكار، بدليل مقالاته الطويلة، وهو أمر يبدو مفهوما في واقع الحال، فمن يتمكن من الحصول على 97% في الثانوية العامة الأردنية هو بلا شك من الفئة ذات الذكاء المميز، مع أن موهبة الكتابة تبدو شيئا آخر.

وحين تعترف أوساط السلفية الجهادية في الأردن بأن الرجل لم يكن معروفا لديها إلا من خلال كتاباته، فإن ذلك يدل على أن شوق الجهاد يأخذ بألباب قطاع عريض من الشبان، وإن لم يعرف أكثرهم كيف يترجمه في الواقع العملي.

وكانت الشبكة العنكبوتية واحدة من أهم المصادر التي اعتمدت عليها أجهزة المخابرات العربية والأجنبية في الوصول إلى من تتوفر لديهم توجهات جهادية، لاسيما حين تحولت إلى ساحة لبث مشاعر الشباب حيال العدوان الذي تتعرض له الأمة، وحيال رموز الجهاد بشتى تصنيفاتهم وأفكارهم، وهي ذاتها التي كشفت هوية همام بعد فتحه مدونة باسم أبي دجانة الخراساني، حيث لم يكن صعبا على الأجهزة الأمنية الوصول إلى صاحبها.

وشكلت انتفاضة الأقصى نهاية سبتمبر/أيلول 2000 رافعة مهمة في بناء الفكر الاستشهادي والمقاوم تبعا لما تمثله فلسطين في الوعي الجمعي لجماهير الأمة، وبعدها هجمات أيلول 2001 التي بدت ملهمة رغم ما أثارته من جدل سياسي وشرعي، ومن ثم احتلال أفغانستان، وبعد ذلك احتلال العراق بما مثله من إذلال للعرب والمسلمين، سواء بسبب الهزيمة المدوية، أم بسبب الروح الإمبريالية المدججة بالغطرسة التي انطوى عليها الغزو.

في هذه الأجواء جميعا تصاعدت بشكل لافت أعداد الراغبين في الجهاد من الشباب المسلم، وقد تبدى ذلك في عشرات الآلاف من الشبان الذين تدفقوا إلى العراق للمشاركة في الحرب رغم أفقها المسدود.

همام البلوي هو من دون شك ابن هذا الجيل، معطوفا على أصله الفلسطيني (من مدينة بئر السبع الفلسطينية المحتلة ومن مواليد الكويت عام 1977)، فحين كانت انتفاضة الأقصى تطلق سيل الاستشهاديين، كان همام في الثالثة والعشرين على مقاعد الدراسة.

في نصوصه المكتوبة والمنشورة يبدو الرجل محبا للجهاد ومحرضا عليه، كما يبدو مشتاقا للشهادة، وفي نصه الذي يبدو الأخير قبل رحيله إلى أفغانستان، يشير إلى الحرب على غزة، وذلك بعد أن يشكو من أن كلماته "أصبحت باهتة ومنتهية الصلاحية، تحتضر بين يدي كاتبها".

ويضيف البلوي: "أشعر بأنني أصبحت كهلا، طاعنا في السن، تتسع الفجوة بين ما أحلم به، وما أنا عليه حقا، وتتحول كل قصائد المديح إلى رثاء، وكل نار تحرق قلبي حبا للجهاد إلى رماد".

ثم يبدي مخاوفه من أن لا تسنح له فرصة تنفيذ عملية جهادية يموت فيها شهيدا، قائلا "هذا الكابوس يؤرقني، ويتلف أعصابي، أخاف من أن يشفق عليّ يوم القيامة، وأنا أقف أمام جبال الذنوب، بينما هم (المجاهدون) يتقلبون بين غرف الجنان في نعيم مقيم".

في السياق تحضر فلسطين، بخاصة حرب غزة، وفيها يقول: "ما تمنيت من قبل أن أكون في غزة، ولكن اليوم أتمنى هذا، لأكون قنبلة هاون يضعها الموحدون في مدفعهم ثم يكبّرون علي". وهو ما يشير إلى أن النص قد كتب أثناء الحرب، وهي الفترة التي غادر بعدها إلى باكستان فأفغانستان بنية الجهاد هناك.

وفي ذات السياق المتعلق بغزة وفلسطين يقول "كأني أشتم عبق الجنة تهب رياحها من صوب غزة هاشم، وكأن السماء فتحت أبوابها على مصراعيها استقبالا لأهل الله وخاصته في أرض الرباط، ففي أرض الإسراء والمعراج، هناك أرواح مقبولة تسري إلى ربها وأخرى تعرج".

في نصوصه القديمة ثمة مديح استثنائي لأسامة بن لادن، بل ثمة مديح آخر لأبي عمر البغدادي، زعيم ما يعرف بدولة العراق الإسلامية التي يتحدث عنها كما لو كانت الخلافة الراشدة، وهنا يتبدى البعد الحالم في شخصية الرجل الذي يذكّر بشباب الإخوان في الثمانينيات حينما كانوا ينشدون في الرحلات "الصين لنا والهند لنا...".

هكذا تبدو شخصية الرجل مركبة من ذكاء حاد، وأبعاد حالمة يترجمها صاحبها نثرا وشعرا، وتتبدى في فهم معين للعمل الإسلامي وللجهاد في سبيل الله، وهو ما تُرجم أخيرا في العملية التي نفذها بعد ترتيبات معقدة تنطوي على الكثير من الدقة والذكاء.

في الوصـية التي تلاها كان يتحدث بوصـفه عضوا في طالبان، والوصية عموما تبدو مجاملة لحركة طالبان التي نسق معها تحركاته منذ أن حطّ الرحال في باكسـتان، والوصـية غالبا ما تحكمها الحسابات السياسـية والميدانية للحركة وليس للشـخص، وعموما لا تحتاج حركة مثل طالبان إلى مبرر كي تنفذ عملية من هذا النوع، لاسيما أن حربها مع الأميركان متواصلة.

كان لافتا بالطبع ما حظيت به العمليـة من ترحيب في الأوساط الشـعبية في العالم العربي والإسـلامي، والسـبب هو أن حركة طالبان ليست موضع خلاف في حربها مع الاحتلال، وإن كانت كـذلك في اختياراتها الفقهيـة قبل سـقوط الإمارة على يـد الأميركان وقوات الناتو، فضـلا عن طبيعـة العملية ذاتها من حيث اسـتهدافها لموقع عسـكري ليس فيه مـدنيين كمـا يحصـل في بعض العمليات التي تنفـذها الحركـة، فضـلا عن كثير من عمليات القاعـدة في العراق وسواه.

دليـل ذلـك هو ردود الفعـل على العمليـة كمـا عكسـتها منتـديات الإـنترنت، ذلك أن آلاف التعليقات والتعقيبات لم تكن من السـلفيين الجهاديين، ولم تكن بالضرورة من معجبين بخط القاعدة، بل ربما جاء كثير منها من أشخاص يختلفون مع خطها الفكري والسياسي.

بقيت الإشـارة إلى ملاحظـة بالغـة الأهميـة أثبتتهـا العمليـة وشخصـية منفـذها، وهي أن أشواق الجهاد (وترجمته فعلا في بعض الأحيان) ليست حكرا على الفقراء كما يشاع، بل تشمل قطاعات واسعة من الناجحين وأبناء الأغنياء.

وقـد ظهر ذلك بوضوح في تجربـة حماس -على سبيل المثال- كما برز في مصادفة ملفتة في ثلاث حالات متوالية خلال الأسابيع الأخيرة الطبيب الأميركي من أصل فلسطيني (نضال حسن) والشاب النيجيري (عمر الفاروق) المنحدر من أسرة ثرية، وكذلك همام البلوي.

كـل ذلـك يؤكـد أن العنف بـأنواعه المشـروعة وغير المشـروعة ليس نتـاج الأفكار، بل هو نتاج ظروف موضوعيـة أكثرها سياسـي يتمثل في الهجمـة على الإسلام والمسلمين (فلسطين والعراق وأفغانستان بشكل أساسي)، بينما تمنحه الأفكار مزيدا من الشرعية والدافعية، وهي حقيقة رفض بوش الاعتراف بها، وها إن أوباما يسير على نهجه في رفض الاعتراف بها، مما يعني أن دوامة العنف في المنطقة ليست في وارد التوقف في المدى القريب .

كاتب ومفكر أردني